قلعة الحصن (سوسيا)

ولكي تَتَصَوَّرَها أيها القارئُ الكريم فَإِنْ أَنْتَ رَأَيتَها إذا كنتَ من الرَّعيلِ الأولِ وأنت تسير في طريقك إلىٰ حَمةِ جُدُر ، أو في رحلة إلىٰ خط الجبهة قبل عام ١٩٦٧م ، أو كنت تَخْدُمُ خدمة العلم في هذه المنطقة مُدافِعاً عن بلادِك من خطر الصهاينة المُحْدِقِ.

وإن كنت صغيراً وولدت بعد عام النكسةِ فبإمكانِك تَصَوُّرُها كما أَصِفُها لك: هي قلعةٌ قديمةٌ أنشأها وسكنها وَحَصَّنها أقوامٌ علىٰ مرِّ التاريخ من العصر الهيلنستي إلىٰ العصر الروماني والبيزنطي والإسلامي ، وكان من يحكم المنطقة عليه أن يسيطر عليها؛ لأنها تشرف علىٰ الطريق الواصل بين فلسطين وسورية ، وهي في تلةٍ عاليةٍ واسعةٍ تحيطُ بها الوّديان العميقة من الشرق والشمال والغرب ، وتشرف من مرتفعاتها علىٰ بحيرة طبريا وساحلها وسهل المرج ومدن سمخ والسمرة ونقيب ، وكذلك القرىٰ السورية علىٰ شاطىء البحيرة الشرقي مثل الكرسي والدوكا والحاصل وغيرها ، كما تكشِفُ السهول الممتدة حتىٰ مدينة فيق

والمرتفعات التي تعلوها والمؤدية إلىٰ قرىٰ كفر حارب وسكوفيا وشكوم.

وقد سيطر عليها الصهاينة علىٰ أثر احتلال فلسطين وحَصَّنوها واستخدموها كَخَطٍّ قِتالٍ مُتَقَدِّمٍ للاعتداءِ علىٰ المواقع والقرىٰ، وقد قُصِفَت قرية سكوفيا من هذه القلعة بأكثر من مئتي قنبلة من المدافع الإسرائيلية الرابطة فيها أواخر عام ١٩٥٥م.

وفي القلعة كهوفٌ وآثارٌ رومانية وخزانات للمياه، قد جرَّ الرومان إليها المياه في قنواتٍ أوصلوها من أماكن بعيدة عبر الجبال ونصبوا القصاطِلَ الفخارية فوق قناطر عالية لتصل إليها، ولهذه المدينة قدسيتها عند المسيحيين حيث يَعتقدون بأن السيد المسيح أقام فيها.

وفي غربها الجنوبيّ تشرئبُّ قرية كفر حارب المتأنقة بالجمال الأخّاذ وهي تُطِلُّ علىٰ بحيرةِ طبريّا من أعلىٰ الجبل المشرف وكأن الله خلقها لتحرسَ هذه المنطقةِ ومُقَدَّساتِها علىٰ مرِّ العصور، وأسكن فيها قوماً مُخلصين من أُسَرٍ طموحةٍ ومثقفةٍ، وكان منهم محامون وضباط وخريجون جامعيون منذ عشرات السنين، وكانوا من أول الدفعات من جامعة دمشق.

وفي الشمال تظهرُ لك شرق بحيرةِ طبريا القرىٰ العشر بالبُطيحة، وسط خمائِلَ وجناتٍ ومَرْتَعٍ ومَأْوىٰ لسكانٍ من عَشيرةِ التلاّوية وهم أباةٌ وأشداءُ يحبون الحياة والأرض والعمل، وكلهم

في أُلفَةٍ وتعاونٍ ويستقبلونك بالترحاب والكرم ، وقد تخلَّصوا من ظلمٍ واستغلالٍ إقطاعيٍّ جثم علىٰ صدورهم عشراتِ السّنين ، فَرَدَّتْ الثورةُ في القطر العربي السوري أرضهم وحقوقهم المسلوبة وبَنَتْ لهم القرىٰ النموذجية والمزارع والمدارس ، وكانت حكومة الجمهورية العربية المتحدة قد أخذت الأراضي من هذا الإقطاعي ووزعتها عليهم ، وطبقت قانون الإصلاح الزراعي منذ عام ١٩٥٨م ، بعهد الوحدة .

وكان أهلُ هذه القرىٰ شجعاناً لا يرهبون جيشَ وزَوارق العدوِّ الصهيوني ، وتصدوا له وهو يحاولُ الاعتداءَ علىٰ شاطئهم وقراهم ومواشيهم وأهليهم .

وإذا نَظَرْتَ من المركزِ عند سقف الزوية (سكوفيا) إلىٰ الشرق فإنك ترى قُبَّتين عاليتين هما : رُجمُ زاكية ، ورُجمُ فيق ، وقد كانتا في غابرِ الأزمان قلعتين حصينتين وبهما آثارٌ تدلُّ عن حضاراتٍ عريقة ، وعلىٰ بُعْدِ قليلٍ تظهرُ قريةٌ «العال» الجميلةُ في سهلها وبساتينها وينابيعها وقد سكنها قومٌ من قبائل عربية وكُردية تآلفوا وتصاهروا وتعاونوا لِرِفْعةِ شأنها ، وفي ثورةٍ قام بها رِجالاتُ القريةِ علىٰ المستعمرِ الفرنسي مع بقيةِ القرىٰ وقتلوا حاكم المنطقة المعيَّن من قبل المستعمرين في قضاء فيق ، وأصدرَ الفرنسيون أحكاماً بالإعدامِ علىٰ هؤلاء الثوار وعُلِّقوا على أعوادِ المشانقِ في تَلَّةِ فيق وهم : ذياب السلامة ، وعبد الهادي الخليل ، وحسين محمود حسين ، وعبد الهوادي ،

وعبد الله النترور ، وعلي عوض السلامات ، وصارت أرواحهم تضيءُ شعلةَ الثورة وتحرير البلاد من براثن المستعمر ، فانضموا إلىٰ قوافل الشهداء في أرجاء الوطن الحبيب من شرقه إلىٰ غربه ومن شماله إلىٰ جنوبه ، حيث قدَّم ثوارٌ أَبطالٌ أرواحهم فداءً للوطن الغالي وهم يقارعون مستعمراً غاشماً جاء عبر البحار من البلاد البعيدة؛ ليحتلَّ وطننا ويستغِل شعبنا وخيراتنا ويستعمر إرادتنا ويحوز مُقَدَّراتنا ، وكان الأدباء والشعراء يحثون الشعب علىٰ المقاومة والثورة ومنهم الشاعر عدنان مردم بك عندما أهدىٰ إلىٰ أرواح هؤلاء الشهداء قصائد منها :

فَتباركَتْ تلك الدماءُ على الثرى ... مسفوحة تسقي ربىٰ وطلولا
وتقدَّست أجسادكم منثورة ... نثـر الشقـائـق رقـة ونحـولا
إن رُمْتَ في الدنيا حياةً حرة ... فاسْلُك حُساماً للطغاةِ صَقِيلا
وابسط يديكِ ببَذْلِ روحك عن رضىٰ ... فالمجد يأبىٰ أن يكون بخيلا

وسطر الكثيرون أفعالاً هامة في مقارعة المستعمر الفرنسي ، ومنها محاولة قتل الجنرال غورو يوم ٢٣ حزيران ١٩٢١م ، بينما كان متوجهاً للقنيطرة في زيارة تفتيشية وانتهت بقتل ضابط معه وإصابة مجموعة منهم حاكم دمشق الذي كان يرافقه .

وهؤلاء الثوار هم: خليل علي مريود ، ومحمود حسن ، وشريف شاهين ، ومحمد ضاهر ، وصادق حمزة ، وأدهم خنجر ، وكانت التضحيات كبيرة في سبيل الوطن وتمثلت بمقاومة العدوان والتصدي له رغم عدم التكافؤ لا بالعدد

ولا بالعدة ، ومن هذه المواقع معركة مجدل شمس ، ففي شهر نيسان ١٩٢٦م ، صمدت القرية أكثر من ١٢ ساعة عندما حاصرتها قوات خاصة فرنسية وقصفتها بالمدفعية والطائرات ، وكانت خسائر الفرنسيين ٣٦ قتيلاً وعشرات الجرحىٰ واستشهد ١٣١ مجاهداً ، وفي العاشر من شهر حزيران سقط من الثوار في جباتا الخشب ٤١ شهيداً وعلىٰ رأسهم الشهيد البطل أحمد مريود .

إن لهذه القصص وهذا السرد التاريخي لتاريخ نضالات الأقدمين الذين أضاؤوا الشموع علىٰ طريق تحرير الوطن ، ومثالهم الشهيد البطل يوسف العظمة الذي تصدىٰ لجيش العدو المهاجم بالدبابات والطائرات والمدفعية ، ومعه بضع مئات من أفراد القوات العربية السورية ، وهم يتسلحون بالبنادق وبعض الرشاشات وقاوم هذه الجيوش وتصدىٰ لها رغم أنه يعرف مسبقاً أن لا توازن بين جيشه وجيوشهم ، وبقي في الميدان في روابي ميسلون يقاومهم ويصدهم حتىٰ فرغت الرصاصات من بنادق رجاله ، واستشهد معه العديد من رفاقه في يوم السبت ٢٤ تموز ١٩٢٠م ، وبذلك كان الفرنسيون يهدفون لتفكيك قوام الجيش السوري الفتي الذي كان يقلقهم .

وهكذا رثاه شوقي بأبيات منها :

أَقـام نَهـارَه يُلقـي ويُلقـي ولما زال قرصُ الشمس زال
وكُفِّـن بـالصَّـوارِمِ والعَـوالـي وغُيِّبَ حيث جال وحيث صال

وقد أبّنه الملك فيصل في ذلك التاريخ ببيت من الشعر:

لا يَسلمُ الشرف الرفيعُ من الأذى حتىٰ يُراق علىٰ جوانبه الدم

وقدَّم يوسف العظمة دمه الغالي فداء للوطن وعلينا الاقتداء به.

* * *